

التصوير الحسي لدقائق التكوين وأثره في إقناع العقول في القرآن الكريم

د/ حمزة مسعود الطوير - أستاذ مشارك - جامعة غريان

المجلة الليبية للدراسات - العدد 20 - يونيو 2021م

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على عبده ونبيه محمد الصادق الأمين الذي أوتي جوامع الكلام، وأنزل الله عليه أشرف الكتب لخير الأمم، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن القرآن الكريم برياضه الغنيّة وموائده الشهية تتعدد أساليبه وتتنوع أفانيه؛ لإيصال مضمونه، ونشر هداياته وتشريعاته، ومخاطبة العقول لتعي ما جاءت به الآيات، وتقف على مراد الله فيها، ومن ثم فإن الأثر الذي يحدثه هذا الكتاب المجيد بأسلوبه الممتع والمقنع يتخطى حدود النفس البشرية؛ فيتأثر به كل مخلوق حتى الجمادات التي لا حس لها، فهو أعظم من أن تقوم بحمله السماوات والأرض، وقل - إن شئت - راسيات الجبال ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ (سورة الحشر : الآية 21)

أهمية الموضوع :

لا شك أن شرف العلم من شرف المعلوم، ومن ثم فإن أهمية هذا البحث تكمن في كونه يتعلق بكتاب الله تعالى، فيبرز لونا من ألوان إعجازه في أسلوبه البديع، ويكشف عن منهجه في إمتاع النفوس وإقناع العقول وفق وسائل متنوعة، وطرائق متعددة تصل بالمتأمل إلى الاقتناع القطعي والإيمان التام بأن منشئ هذا الكون وصانعه هو الله .

ولعل في الصورة الحسية التي يرسمها القرآن لمادة الكون وأحداثه ما يربط القلوب بخالقها، ويلزم العقول على التأمل في عظيم صنعه وجميل إبداعه في خلقه.

أسباب الاختيار :

- في هذه الإطلالة على نافذة من نوافذ الأسلوب القرآني يحاول الباحث خدمة كتاب الله في لون من ألوان إعجازه والتعرّف إلى صدقاته التي تقع عليها أنظار الباحثين والمتبحرين في بلاغة القرآن وإعجازه.

- كما يأمل الباحث أن يقف على شيء من مسالك القرآن التي انتهجها لإقناع العقل الإنساني، ووسائله التي تميز بها أسلوبه عن غيره من أساليب الكلام .

مشكلة البحث:

تتنوّع أساليب القرآن وتتغير دلالاته تبعاً لتغير السياق وحاجة المقام، فتتبع الآيات منهجاً فريداً في مخاطبة العقل البشري وإقناعه بالحجج العلمية والبراهين الكونية من خلال توجيهه إلى استقراء الكتاب المنظور، والوقوف على بدائع الصنع ولطائف التكوين في المخلوقات، ومن ثم فإن مشكلة هذا البحث تكمن في الإجابة عن التساؤل الآتي:

ما أهم الوسائل التي وظّفها الخطاب القرآني لتوجيه العقول للوقوف على الدقائق النفيسة واللطائف البليغة في تكوّن المخلوقات ؟ وما أثر التصوير الحسي في الدعوة إلى الله تعالى، وإقناع الخلق بوحديته ؟ وسيحاول الباحث الإجابة عن مثل هذه الأسئلة وغيرها مما ينشأ من تساؤلات من خلال إبراز معالم الصور الحسيّة لمكون الظل في الدنيا والآخرة.

المنهج المتبع:

وسينتج الباحث منهجاً تحليلياً يمكنه من التعرف على النكات البلاغية المعجزة في الآيات القرآنية، مركزاً على ما يعتمد عليه الخطاب القرآني من طرق ووسائل تسهم في إمتاع النفس وإقناع العقل.

خطة البحث :

آثرت في هذه الدراسة أن تأتي مادتها في عناصر تتسلسل تسلسلاً رتيباً بحيث يأخذ الكلام بعضه أعناق بعض، فتحدثت أولاً عن مفهوم الأسلوب القرآني ومزاياه؛ لأصل من خلال ذلك إلى تمييز أسلوب القرآن عن سائر أساليب الكلام، كونه الكتاب المعجز ببلاغته وبيانه.

ثم تحدثت عن أسلوب القرآن ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى وإقناع العقول من خلال لفت الأنظار إلى ما في الكون من آيات تبرهن على وجود الله ووحدانيته.

وخصصت العنصر الثالث من البحث للحديث عن التصوير الحسي للمعاني، فتحدثت من خلاله عن الصور الحسية للظل كما جسدها القرآن الكريم في الدنيا، ثم ظلال الجنة وما فيها من عنصر التشويق والترغيب.

وذيلت هذا العمل بخاتمة حاولت أن أودعها ثمرة البحث ونتائجه التي توصلت إليها، ثم أردفتها بقائمة المصادر التي وظفتها واستأنست بها.

أولاً- مفهوم الأسلوب القرآني ومزايه :

معنى الأسلوب:

الأسلوب لفظ له في اللغة دلالات متعددة، فقد يطلق ويراد به كل شيء امتد من غير اتساع. (الحميري:1999م ، 2158/5)

ويطلق على الفن والوجه والمذهب، يقال: سلك أسلوبه، أي: طريقته وكلامه، وأخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه. (الزبيدي مرتضى: د.ت. " سلب " 71/3) ، وجاء في المعجم الوسيط أن **الأسلوب** هو: " الطريق، يقال: سلكت أسلوب فلان في كذا أي : طريقته ومذهبه، والأسلوب طريقة الكاتب في كتابته والفن يقال أخذنا في أساليب من القول أي فنون متنوعة " (إبراهيم مصطفى وآخرون- د . ت - 441/1)

واصطلاحاً: عرّفه صاحب " مناهل العرفان " بأنه: " الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، أو هو: المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو: طابع الكلام، أو فنّه الذي انفرد به المتكلم، " أما أسلوب القرآن الكريم فهو " طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه " . (الزرقاني 1267 هـ 203/2)

من خلال ما سبق يمكن القول: إن الأسلوب هو الطريق الذي يكون عليه الكلام من حيث الحسن والوضوح والسلاسة، وهو المرأة الصادقة التي تنعكس من خلالها شخصية المتحدث أو الكاتب، وتبرز مواهبه العقلية ومشاعره ومزاجه وثقافته، وسائر مميزاته.

ولعل ما يميز الأسلوب ويرتقي به إلى مرتبة الجمال هو الوضوح والبيان، والابتعاد عن الإغراب والتكلف الناجم عن نرجسية الطبع والوله بالتفرد والشذوذ، ومن

هنا يصوّر الرافعي أسلوب القرآن وتفوقه عن غيره من أساليب الكلام، فيصفه بأنه: " مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلاّ وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً وهو الذي قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم ، وتركهم على ذلك يتكؤون " . (الرافعي: 2005 - 121/1) فألفاظ القرآن الكريم الذي تحدى الله به الخلق ألفاظ عربية، وأساليب القرآن عربية كذلك، وتألّف الألفاظ في الجمل جار على أساليب العرب، ورغم ذلك عجزوا عن مضارعتة؛ لأنه صُيغ من مستهلّه إلى ختامه بسلاسة الألفاظ ووضوح العبارة وجمال الأسلوب مع حسن التفصيل ورتابة الأقوال وجودة المعاني، فليس من شيء في أسلوبه " يضع من موضعه، أو يذهب بطريقته، أو يدخله في شيء من كلام الناس، أو يرده إلى طبع معروف من طباع البلغاء " . (المصدر السابق - 140/1)

ويرى السخاوي أنّ أسلوب القرآن الكريم " جاء مخالفا لمعهد كلام البشر سواء أكان شعراً، أم نثراً ، أم سجعاً، فإنّ كلام البشر - وإن كان قد صدر من فصيح بليغ - فإنّه إذا طال يظهر فيه التفاوت والاختلاف والإخلال ". (السخاوي علي بن محمد - 1999م - 79/1)

بينما يجمع أسلوب القرآن الكريم بين الدقة في العبارة والاستيعاب الشامل لما يعرضه ويتطرق إليه من قضايا إنسانية أو هدايات إيمانية فيشبعها تحقيقاً وبحثاً، علاوة على أنه يجمع الحق والجمال معاً، فالمتأمل في الآيات التي تعنى بالاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة المنكرين يجده " يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة " . (الزرقاني - 213/2).

إن رصانة الأسلوب القرآني، وجمال عباراته ونصاعتها، وقصدها بين الإيجاز والإطناب يقرب مأخذه ويبسّر فهمه، ويجعله سهل المنال متسني التحصيل، تتشوّف

لسماعه النفوس ولا تنفر من إعادته الطباع ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ (سورة القمر الآية 17) فالمتأمل في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة فصلت الآية 39) وقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (سورة ق الآية 6 -11) يجد نفسه منبهراً أمام هذا الخطاب الذي يأسر الألباب، يقول الزرقاني: " الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل إذ قال في الآية الأولى: (إن الذي أحياها لمحي الموتى) وفي الآيات الأخيرة: (كذلك الخروج) يالجمال الساحر و ياللاعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات ". (الزرقاني - 213/2).

ثانيا - القرآن وإقناع العقل:

إنَّ مما جعل القرآن يستولي على العقول والقلوب قبل أن يستولي على الجدران والبلدان، هو أسلوبه الفريد ومسلكه في مخاطبة البشر، وإقناعه بأن الإسلام هو دين البشرية والحل الأمثل لخلاصها ونجاتها في الدنيا والآخرة، وأنه لا مناص لعاقل رشيد من الإيمان بالله، واتِّباع منهج الحق والرسالة الخاتمة، المهيمنة على الرسالات جميعها.

ولكي تكون مادة القرآن الكريم ومحتواه حجة على من بلغه لا بدَّ أن يرتقي أسلوبه ويسلك أعلى مراتب فن الخطاب والإقناع، لذا جاءت مسالك القرآن في سوق الأدلة

والإدلاء بالحجج الساطعة والبراهين الدالة على الوحدانية وصدق الرسالة متعددة؛ لتعمل على إقناع العقل وإرضائه، فالتأمل لآيات الكتاب يلحظ استدعاء العقول، وتنبئها للنظر في الأدلة والبراهين الكونية الدالة على وجود الله الخالق لهذا الكون، فيأمر القرآن بالتأمل تارة، ويشير في أخرى إلى ضرورة التدبر في الكون الفسيح، والكتاب المنظور؛ ليصل إلى قناعة بُنيت على رؤية تعقل واتّعاظ واقتناع، لا مجرد مشاهدة ونظر، والشواهد على هذا كثيرة في كتاب الله.

انظر مثلاً إلى قوله تعالى في أسلوب إخباري يحثّ على التأمل والمشاهدة: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران الآية 190) وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الذاريات الآية 21) حين يوجه الناس إلى النظر في خلق الإنسان في أسلوب استفهامي يراد به صرف العقول إلى مشاهدة آياته في هذا المخلوق " أفلا تبصرون "

وكثيراً ما يتخذ القرآن من الإشارة إلى بعض الآيات أداة للإقناع والمحااجة السليمة، فتجد مثلاً شبه الجملة "من آياته" تتكرر كثيراً بين ثنايا السور المجيدة وحتى في السورة الواحدة كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم الآية 21) ليدل على عظيم حكمته وإحاطته وشموله بما يلائم طبيعة البشر ويتواءم مع كل صنف من أصناف مخلوقاته ، حيث اقتضت حكمته حين خلق آدم أن يخلق منه حواء لتكون مؤنسا له وتتحد القدرات الغريزية بينهما لإنجاب النسل وإعمار الكون.

ثم يأتي بعدها ليقول ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُحُوشِ مِنْكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم الآية 22) ليخاطب العقول بمسألة خلق السماوات وما فيها والأرض وما عليها وتنويع السنة واللوان الناس مع اتحادهم في التقاسيم الكبرى

للشعر، وما في ذلك من آيات تدلُّ على عَظَمَةِ الخَالِقِ التي تتضح بجلاء لأولي العلم الذين يَتَفَكَّرُونَ في عظيم صنعه .

وحيث إن في النوم حصول الراحة وذهاب التعب، وهو أمر يناسبه ظلمة الليل وسكونه، بينما يناسب ضوء النهار الانتشار وطلب الرزق لإفعام النهار بالحيوية والحركة، قال تعالى موجهًا أولي الأسماع الذين يتدبرون ما يسمعون إلى هذا المعنى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (الروم الآية 23) فمن العلامات الدالة على قدرة الله وعظيم صنعه أن جعل الناس ينامون بالليل فتستقر نفوسهم وتهدأ أبدانهم ويفارقها العناء، ثم يستأنفون الكد وطلب الرزق والسعي في الأرض لإعمارها بالنهار، وهو دليل آخر على وجود الخالق وعظمته.

وتتوالى الآيات في شيء من الترهيب والإنذار تارة وبالتبشير والترغيب أخرى لتؤكد أن الكون بيد الخالق يعز فيه ويذل ويعطي ويمنع ولا يشاركه في ملكه أحد، فيقول الحق تعالى مخاطبا العقول ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم الآية 24) فهو يستحضر العقول لتعلم أن من دلائل قدرة الله " أن يريكم البرق، فتخافون من الصواعق، وتطمعون في الغيث، وينزل من السحاب مطرًا فيحيي به الأرض بعد جفافها، إن في هذا لدليلا على كمال قدرة الله وعظيم حكمته وإحسانه لكل من لديه عقل يهتدي به " . (التركي عبد الله بن عبد المحسن وآخرون - د . د - ت - 7 / 207)

ويأتي بعد هذه المقدمات التي سيقَّت لإقناع العقول بعظمة الله ما يفيد القيام المتقن للسموات والأرض بأمر الله وحده في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (سورة الروم الآيات 21-25) تجمع الآية بين دقة اللفظ وبراعة النظم لتعرض الحجة على العقول بأسلوب إخباري لا يبقى معه مجال للشك بأن السماوات والأرض من عظيم صنعه وإبداعه، كما أن بقاء نظامهما واستقرارهما على مر الأزمنة آية على وحدانية الصانع .

إن المستقرئ لكتاب الله والمتدبر في آياته يلحظ استدعاء العقول السليمة لرؤية الأدلة والبراهين بأساليب متنوعة ووجوه متعددة انتهجها القرآن وهو يقنع العقل، وإذا أردنا أن نقف على شيء من إقناع القرآن للعقل البشري والتأثير عليه فلا بد أن ننظر في الأساليب التي خاطب بها القرآن الناس.

ولا يستطيع الباحث استيفاء كافة وسائل وأساليب الخطاب القرآني للعقل في هذا البحث الوجيز، ولذا سأكتفي بذكر واحد من أبرز هذه الأساليب هو:

ثالثاً - التصوير الحسي للمعاني :

يصور القرآن الكريم المعاني بتراكيب وألفاظ يجعلها تتمثل أمام القارئ في صورة حسية تكاد تُرى أو تُلمس بالحواس، حتى إنك لتشعر وأنت تقرأ بعض الآيات التي تناولت ذكر الجمادات بأنك أمام شيء ينبض بالحياة، له من الخصائص ما للأحياء، وتستعتمد هذه الدراسة على التصوير الحسي لمعاني الظل في القرآن الكريم ، وهي كالاتي:

أ - الصورة الحسية لظل الدنيا:

مثلاً عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَرِ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (سورة الفرقان الآية 45) يبرهن القرآن على أن من الآيات الدالة على قدرة الله صنيعة في الظل وأنه تعالى مدّه ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على حال واحدة لا يقصر ولا يطول ، حتى لو تحرك المصدر الضوئي الناجم عنه.

وقد ذكر الراغب أن الظل أعم من الفيء، وهو ضد الضح، يقال: ظل الليل وظل الجنة، ويطلق على ما لم تصل إليه الشمس. (الراغب الأصفهاني - 1961م - ص 388) ويعرّف ابن السكّيت الظل بأنه " ما نسخته الشمس وذلك بالغداة إلى الزوال " (1949م - ص 150)

وفي معجم غريب القرآن هو " الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة " (عبد الباقي محمد فؤاد - 1950م - ص 88)

وقد ورد مصطلح الظل مفردا ومجموعا فيما يربو عن العشرين موضعا في كتاب الله جلّها في سياق بيان عظمة الخالق وامتنانه بالنعم على الخلق، والبرهنة على ألوهيته. ففي سورة الفرقان ترسم الآية السابقة مع قوله تعالى في التي تليها ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا

قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (سورة القرآن الآية 46) صورة أخرى للظل في انقباضه وتلاشيه بعد تكامله، فهو يُقْبَضُ كنفس عاقلة متطورة، أو كإنسان أدبر بعد إقباله فيأخذ في التلاشي والمغيب عن الأنظار كلما ابتعد شيئا فشيئا، وقد استخدم القرآن أسلوب الاستقهام التقريري؛ لكونه الأصلح لمراتب السامعين وطبقاتهم، ولما له من خصوصية في إيقاظ العقول وتحريضها على إنعام النظر واستقراء الأدلة والبراهين الكونية الدالة على وجود الله تعالى.

وتؤكد الجملة الفعلية المسبوقة بالاستقهام (ألم تر) أن الرؤية ليست منحصرة في البصرية بحواس النظر وإنما هي بالبصيرة أيضاً، ومن ثم عدّي الفعل (ترى) بحرف الجر (إلى) ليفيد وجوب التأمل بالفكر والتدبر بالعقل، والاستبصار بالبصيرة في صورة الظل الذي يفعم بالحركة فينبسط تارة وينقبض أخرى بتقدير الله تعالى؛ لأن في مدّه وقبضه " نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس ، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفياء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظلّ، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه، هذا محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم " (ابن عاشور محمد الطاهر - 1997م-43/19)

ثم إن في التعبير عن بسط الظلال بالفعل (مدّ) لفت الأنظار وتحفيز العقول للتأمل في دقائق التكوين الإلهي لحركة الظل التي تتناسب مع حجم الجسم الحائل بين مصدر الشعاع والظل نفسه، وتتوافق مع مقداره، فتتفاوت بذلك مقادير حركته في الشيء الواحد بسطاً وانقباضاً؛ وفق نظام دقيق يبرهن على أن هذا يتم ليس بمحض صدفة واختيار، وإنما هو بتقدير وتدبير، ثم إن حجم امتداد الظل يأتي بحسب التقابل بين

الأشعة والجسم الحائل " فكلما اتجهت الأشعة إلى الجسم من أخفض جهة كان الظل أوسع، وإذا اتجهت إليه مرتفعة تقلص ظله رويداً رويداً إلى أن تصير الأشعة محاذية أعلى الجسم، ساقطة عليه ، فيزول ظله " (ابن عاشور -1997م - 41 / 19) فلا يسع العقل السليم أمام هذه الصورة المفهمة بالحركة المقننة المنتظمة إلا الانقياد والتسليم.

ويعطي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ الظل خاصية الحركة التي هي من سمات الأحياء؛ لترسم صورته في الذهن على أنه مخلوق بتقدير الله يسير في انقياد تام بتدبيره، إذ في السكون انعدام الحركة وجمود الأشياء، فدلّ النص على نقيضه من خلال هذه المقابلة (مدّ وساكناً) التي تبرهن على إيجاد العالم على نظام دقيق، ودوران الأرض وحركتها، وسبوح الأفلاك والكواكب، ولو شاء الله " لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه الشمس، فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي عليها، وتلزم ظلالها حالة واحدة " (فيتور عمران وطالب إسماعيل - ص 136)

ثم إن في المقابلة بين مد الظل والسكون تذكير بحالة الظلام التي سبقت وجود النور على وجه الأرض، واتحاد مصادر الوحي السماوية في الأخبار بذلك، فقد أشار ابن عاشور عند تفسيره للآية إلى ما جاء في إصحاح واحد من سفر الخروج من التوراة، بقوله: " وكانت الأرض خالية، وعلى وجه القمر ظلمة ، وقال الله ليكن نور فكان نور... وفصل الله بين النور والظلمة، فاستدل القرآن بالظل أجدى من الاستدلال بالظلمة، لأن الظلمة عدم لا يكاد يحصل الشعور بجمالها بخلاف الظل فهو جامع بين الظلمة والنور فكلا دلالتيه واضحة " (ابن عاشور -1997م - 41 / 19)

وفي التعقيب بقوله تعالى في الآية الأولى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ بيان أن الظل لا يوجد ولا تتفاوت مقاديره إلا بسبب حركة الشمس، ويؤكد هذا علماء الطبيعة الذين يرون أن الظل عبارة عن " الظلام المنبثق عن وجود حائل كثيف دون مصدر الضوء، وأن الشمس هي المصدر الأول في حدوثه " (خضر عبد العليم - ص 88) ففسّروا ظاهرة الظل بأن مقداراً معيناً من الظلمة " يحصل من حيولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع فينطبع على المكان مقدار من الظل مقدّر

بمقدار كيفية الجسم الحائل بين الشعاع وموقعه على حسب اتجاه ذلك الجسم الحائل من جهته الدقيقة أو الضخمة " (فيتور عمران وطالب إسماعيل - 2008م - ص135) وبذا تكون الشمس علامة دالة على وجوده، ولولاها ما عُرِفَ، أي أنّ ضوء الشمس يكشف الظل لا أنّه يصنعه، كما تكشف قطعة المعدن المغناطيس.

وفي التعبير بأداة العطف (ثم) التي تفيد التراخي في الترتيب ما يفيد انتظام حركة الظل مدّاً وقبضاً في انتظام رتيب وحركة منسّقة تتبى بإتقان الصانع، كما أن العطف بالأداة نفسها في الجملة القرآنية الثانية «ثُمَّ قَبْضُنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا» يتّحد مع علة العطف بها في الأولى، فثم في الموضعين تفيد تراخي الرتبة وهي كما في الكشف: " لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت " (الزمخشري أبو القاسم محمود - 288 /3)

وتعطي آية سورة الرعد الظل استقلالية وعقلانية مستقلة عن صاحبه، فيصوره القرآن عاقلاً يقوم بالسجود لخالقه، ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (سورة الرعد الآية 15) وقد اختلف المفسرون في معنى سجود الظلال، فذهب جمهورهم إلى أنه سجود حقيقي، حيث إن الله الذي خلق الظلال وبسطها قادر على أن يخلق لها إدراكاً تدرك به وتسجد لخالقها سجوداً حقيقياً، (الشنقيطي - أضواء البيان - 14 / 33- الشاملة) وذكروا أن " كل شخص سواء كان مؤمناً ، أو كافراً فإنّ ظله يسجد لله، قال مجاهد : "ظل المؤمن يسجد لله طوعاً ، وهو طائع ، وظل الكافر يسجد لله كرهاً وهو كاره" وقال الزجاج : "جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله ، وظله يسجد لله " (ابن عادل عمر بن علي - 1998 م - 11 / 281)

فيما ذهب آخرون إلى أن سجودها بمعنى ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب وآخره إلى جهة المشرق؛ لارتباطها بانعكاس أشعة الشمس على الأجسام المنبثقة عنها، وانتهاء الأشعة إلى سطح الأرض فيكون الظل قد وقع على ما يقع عليه

الساجد من وجه الأرض، ويكون حينئذ سجودها " بانقيادها لله تعالى في طولها وقصرها، وميلها من جانب إلى جانب " (ابن عجيبة - 2002 م - 3 / 326)

والذي تطمئن إليه النفس ويؤيده السياق القرآني في آيات أخر تقرّ بسجود كل شيء لله هو أن السجود حقيقي بهيئة وكيفية قدرها الله وأودعها في كل مخلوق بما يناسب طبيعة خلقه وتكوينه، فلا يمتنع عقلا أن تسجد المخلوقات حيةً وجامدة لخالقها مثلما هي تسبّحه بلغاتها وألسنتها وطرائقها وخصائصها التي أودعها الله فيها، وأراد لها أن تكون عليها، يقول تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (سورة الإسراء : الآية 44) فلا يكون عدم فقه آلية السجود والتسبيح وكيفيتهما مبرراً لتأويلهما والحيد بهما عن معناهما الحقيقي، وقد تقرر بين العلماء بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يصار إلى المجاز إلا بتعذر الحقيقة .

وفي ذكر الغدو والأصال استيعاب دقيق لتحديد أجزاء أوقات الظل ، وقد خص الله هذه الأزمنة بالذكر " لأن الظلال تعظم وتكثر في هذين الوقتين، وقيل: لأن الامتداد والتقليص أظهر فيها " (البضاوي - 1 / 324) وبذا يكون الوقتان ظرفا مناسباً لسجود الظل ، وحرف الجر (الباء) في الجملة القرآنية الزمنية بمعنى (في) ليفيد الالتصاق بالزمن المذكور ودوام الاستمرار فيه ، وهذا كثير في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح.

ثم إن في ذكر (الغدو والأصال) في الآية نكتة إعجازية، وتحديدًا دقيقًا لوقت سجود هذا المخلوق يتناسب مع نشأته وتكوّنه، ويدل على حكمة الله في خلقه، فالغدو هو الزمان الذي يغدو فيه الناس إلى حوائجهم ، فيكونون بها منشغلين عن العبادة والسجود ، ومثله الأصال الذي يراد به وقت اصفرار الشمس من آخر المساء، حيث يمتنع السجود وتحرم النافلة، فكأن الله تعالى لما خفف عن عباده أعباء العبادة في الوقتين كان له من خلقه الآخرين من يعبدّه ويسجد له ، فهو معبود في كل زمن وحين، فضلاً عما فيه من دعوة العقل لتأمل تناغم البيان القرآني في الاستدلال بالظواهر الكونية على وحدانية الله .

ولعل المستقرئ لآيات القرآن التي تتحدث عن ظاهرة الظل يلحظ أن آية الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ (سورة الرعد الآية 15) بينما وردت في النحل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما في السماوات وما في الأرض﴾ (سورة النحل : الآية 49) فالتعبير بمن التي تفيد العاقل في الرعد بينما عبّر بما التي تفيد العموم في النحل، وذلك راجع إلى أن آية الرعد " مختصة بجميع الأشياء والأحياء فقد غلبت العقل على النظام الكوني، إذ العقل الإنساني هو مناط الوعي بالكون ونظامه الإلهي المحكم الذي ينتظم العقل البشري والنظام الكوني في صعيد واحد، وهو عبادة كل شيء لخالق كل شيء سبحانه، فكانت (من) هي المبينة لغلبة العقل على النظام الكوني، أما في سورة النحل (ما) مختصة بتغليب الناحية الكونية، إذ الكون مستوعب للوجود الإنساني وغير الإنساني، فحيث غلب العقل هناك نشأت حاجة الحياة لتغليب النظام الكوني هنا " (عفيفي محمد - القرآن تفسير الكون والحياة - ص 102 وما بعدها) وأفادت الآيتان حقيقة السجود الفعلي لله تعالى من كل ما ذكر من خلقه، كلاً وفق تكوينه وإمكاناته .

ويتحدث القرآن في سورة القصص عن وجود طاقة هائلة تسمى الظل تزيل الإعياء وتريح الأجساد وتمنحها حيوية ونشاطاً، وهو ما يصوره مشهد النبي موسى ﷺ بعد أن سقى لبنتي شعيب ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (الآيتان 23-24) تجسّد الآيات مشهد تولى موسى إلى الشجرة ليتفياً ظلها، فيستمد منه طاقة تزيل الإعياء والتعب من السقيا وتطفئ شيئاً من الفرع ولهيب الجوع، فقد روي أنه لبث في رحلته "سبعة أيام لم يذق طعاماً إلا بقل الأرض" (ابن عادل عمر بن علي - 1998م - 15 / 237)

وتأمل في دقة اختيار اللفظ وبراعة النظم في التعبير بقوله (تولى) بدل عاد أو رجع ؛ لأن التولي كما في قواميس اللغة من معانيه الرجوع عن السير في الطريق، وقد

أفاد هنا شدة احتياج موسى ﷺ للاستقرار الجسدي في مكان ظليل يحصل معه نوع من الاستقرار النفسي الذي يفنقر إليه نتيجة الخوف والجوع وعناء السفر، فعبر بتولي زيادة في معنى العودة إلى ظل الشجرة طلباً للراحة واستمداداً للقوة " وقصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة - يعني : نعمة الظل الحسي - وجعله أصلاً في استعمال الطيبات ، وتناولها بقصد الشكر " (ابن عجيبة أحمد بن محمد 2002 م . 1423 هـ - 259/5)

إن الملاحظ عن الأسلوب القرآني وهو يجسد المعنى لإبرازه في صور حسية أنه يرسم هذه الصور بقصد إقناع العقل وتوجيهه إلى ما هو خير من خلال بيان الملابس والظروف المحيطة بتلك الصور، ورسم النتائج والآثار المترتبة عليها، ففي سورة الكهف يصور القرآن الظل كطاقة تحافظ على حياة الإنسان والحيوان معا بل ويحتاج إلى هذه الطاقة كل مخلوق، فأصحاب الكهف الذين بقوا تسع سنين وثلاثمائة سنة بمعزل عن الشمس رسم القرآن مشهد مكوثهم بقوله ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ (سورة الكهف الآية 16) ولا يخفى أن سياق الآية يقتضي الإخبار عن هيئة الكهف واتجاهه المقاطع للشمس وليس وقوع الرؤية تحقيقاً، فكلما طلعت الشمس مالت عنهم جهة يمين الكهف، وإذا غربت تتعدى عنهم إلى جانبه الذي يلي المشرق، وهم في موضع فسيح منه يسمح بوقوع أشعة الشمس عليهم وإصابة أجسادهم، لكن الله تعالى " صرف عنهم شعاع الشمس على منهاج خرق العادة ؛ كرامة لهم " (ابن عجيبة - 2002 م - 4 / 29) وفي التعبير بالفعل المضارع في تزاور، وتقرض دلالة على أن ذلك يتم كل يوم طيلة مدة مكوثهم، منعمين بالظل ولا سلطان لشعاع الشمس على جلودهم.

وفي قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ما يؤكد أن الظل طاقة تحمي الموجودات وتحافظ على الأجسام والأجرام من التآكل والتأثر، ولذا شارك أصحاب الكهف في المكوث في معزل عن شعاع الشمس كلبهم الذي يستمد مثلهم من طاقة الظل ما يحافظ على كيانه طيلة هذه الفترة الزمنية، في حين مات الإنسان والحيوان خارج الظل في

مشهد آخر تجسده آيات سورة البقرة ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة البقرة الآية 259) فقد مات الإنسان والحمار خارج الظل " وكانت هذه الإمامة عبرة لا انقضاء مدة كإماتة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وأمات حماره أيضاً ثم أعمى الله عن جسده وجسد حماره أبصار الإنس والسباع والطيور " (الإستانبولي إسماعيل حقي د.ت - 1/ 338) في هذا التصوير الحسي البديع لمفهوم الظل وما رسمه القرآن من صور حسية له ما يقنع العقل بأن الذي فعل هذا قادر حكيم، وهو وحده الذي يستحق العبادة دون سواه .

ب - الصور الحسية لظل الجنة :

أما عن ظل الجنة فلك أن تنظر إلى الصور الحسية التي ترسمها النصوص القرآنية التي تتحدث عن الجنة وما فيها من نعيم، فتصور سورة النساء الظل بأنه غاية في التمام واستجلاب التمتع والرفاه ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (النساء: الآية 57) فلا يكاد يخفى على متأمل ما في هذا الوصف الدقيق للظل من براعة في التصوير وتجسيد للمعنى في صورة حسية تشد الأنظار وتأخذ بالأذهان، فالظليل على وزن فعيل أوكد وأقرب إلى النفس في تقرير المعنى المراد، قال صاحب الكشاف " ظليلاً صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه كما يقال : ليل أليل ويوم أيوم، وما أشبه ذلك ، وهو ما كان فينا لا جوب فيه ، ودائماً لا تتسخه الشمس ، وسجساً لا حرّ فيه ولا برد ، وليس ذلك إلا ظل الجنة " (الزمخشري أبو القاسم محمود - 1/ 555) ثم إن في الوصف بالمشتق من لفظ الموصوف تحفيز للأذهان على استبيان الدلالة على الاستقرار والديمومة والثبات في ذلك الظل .

وتجسد سورة الواقعة منظر الظل في الجنة بأنه لا يعتريه النقص والانقباض، فهو منبسط على هيئته التي تستلزم إمتاع الجالسين وانتفاع المتتبعين بجملة من النعم التي ساقها القرآن في قوله تعالى : **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ** مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وظلٍّ مَّمدُودٍ وماءٍ مَّسْكُوبٍ وفاكِهةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿ (الواقعة : الآية 27) فإذا كانت الصورة في ظل الدنيا متحركة وغير ثابتة، وهي تتأثر في ذلك بسببها وجوداً وعدماً، فإن ظل الجنة دائم ثابت لا انقباض له ولا انبساط، وذلك راجع لزوال سبب تلك الحركة فيه (الشمس) التي أخبر القرآن بزوالها، فيأخذ ظل الجنة الناجم عن سقوط الأنوار القدسية على أشجارها الوارفة، فينتفي الامتداد، ويلزم الظل مقداراً واحداً يحدث السعادة ويجلب التمتع والرفاه.

وهكذا فإن النظر في سياق النصوص القرآنية واستكناه أعماقها يفتح آفاق البحث ويمنح مفتاحاً لكشف أسرار النظم القرآني والوقوف على تنوع أفانين وسائل الإقناع العقلي فيه.

الخاتمة :

في ختام هذا العمل العلمي يمكنني أن أرصد محصلته في جملة من النقاط، من أهمها:

- أن جمال الأسلوب القرآني وقوة معانيه ورصانة عباراته جعله قريب المأخذ، يسير الفهم، لا تملّه الأسماع ولا تنفر من إعادته الطباع، وكان للقرآن الكريم منهجه وأساليبه في استمالة القلوب واستدعاء العقول لتتأمل في الكون وما فيه من البراهين الدالة على وحدانية الخالق وعظمته.

- أن القرآن لا يتعامل مع العقل على أنه وحدة جافة جامدة، بل يسلمه مقاليد قيادة البشر ، ويجعله مناط التفكير، وعليه يدور المؤاخذه بالتكليف، ولذا فإن آيات القرآن

تصوّر المعاني تصويراً حسياً فتجسّدها أمام المتأملين بفكر ثاقب بحثاً عن الغاية الكبرى وهي الإيمان بالله وحده.

- للقرآن الكريم أسلوبه الخاص في الإقناع بالمحاجة وسوق البراهين والحجج لإثبات المطلوب حتى لا يبقى لمعتذر عذر.

- إن المحاولات البشرية الجادة لاستشراف معاني القرآن في الظواهر الطبيعية والآيات الكونية واستكناه القيم الجمالية في التعبير القرآني وتأمل أسرار البنية النصية يسهم في الوصول إلى ما هو أعمق من المعاني السطحية الموثقة في الموسوعات التفسيرية، فيقنع الألباب بمصدرية هذا الكتاب الذي ينوّع في خطابه بين التشويق والإخافة لضمان تحفيز العقول، واستمالة النفوس نحو الإيمان؛ فيغيّر أدوات التأثير وفقاً لتغاير عقول المخاطبين .

قائمة مصادر البحث

- القرآن الكريم - مصحف المدينة المنورة - رواية حفص عن عاصم
- إبراهيم مصطفى وآخرون - المعجم الوسيط - -: دار الدعوة- تحقيق مجمع اللغة العربية
- الإستانبولي إسماعيل حقي بن مصطفى- تفسير روح البيان - دار إحياء التراث العربي- د. ت
- الألوسي شهاب الدين محمود بن عبدالله - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - مصدر الكتاب موقع التفاسير -
- التركي عبد الله بن عبد المحسن وآخرون- التفسير الميسر- موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- د . ت
- - الحميدي نشوان بن سعيد- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ، دار الفكر، بيروت، ط1، 1999م.
- - الدهلوي ولي الدين - الفوز الكبير في أصول التفسير، ، تعريب سليمان الحصري، ط1986، 2م.
- الرافعي مصطفى صادق - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، - دار الكتاب العربي - 2005م.
- الزبيدي محمد مرتضى - تاج العروس - تحقيق مجموعة من المحققين- دار الهداية.
- الزرقاني محمد عبد العظيم - مناهل العرفان في علوم القرآن - مطبعة عيسى البابي وشركاءه - ط3.

- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر - الكشف عن حقائق التنزيل - دار إحياء التراث العربي - بيروت-تحقيق : عبد الرزاق المهدي - د . ت
- السخاوي علي بن ت 642هـ - جمال القرآن وكمال الإقراء - ، تحقق: عبد الحق عبد الدائم - مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط1- 1999م
- أبو السعود محمد بن محمد - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث العربي - بيروت- د . ت
- الشنقيطي - أضواء البيان - دار الفكر - بيروت - 1995م
- ابن عاشور محمد الطاهر - التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس 1997م.
- ابن عجيبة أحمد بن محمد بن المهدي - البحر المديد - دار الكتب العلمية . بيروت-الطبعة الثانية / 2002 م . 1423 هـ